

فَكَاهَا لَيْلَئِي

— ❧ ليلة العيد ^(١) ❧ —

جاء إلى القاهرة لعهد الاحتلال الانكليزي فتى في السابعة والعشرين من عمره يدعى جورج كان قد أوصى به بعض معارف ابيه من الانكليز وقدمه إلى احد قواد الجيش الانكليزي . وكان لجورج معرفة كافية في اللغة الانكليزية والملم ببعض اللغات الاخرى وهو سريع الحركة متوقد الفؤاد فخطي عند القائد وعينه ترجأناً له براتب لم يكن يخطر له ان يناله . وكان شديد الحرص على نفسه بعيداً عن الاشتغال بالملاهي واسباب الترف والتبذير فضت عليه سنوات قلائل جمع فيها ثروة صغيرة وكان في القاهرة اسيرة جاءت القطر المصري من زمن بعيد فتعرف بعض افرادها بجورج وتمكنت الصداقة بينهما فكان جورج يزورهم في بيتهم . وكان لهم ابنة تدعى حنة فاضربوا بعد ما رأوه في جورج من حسن الصفات ان يزوجوها به لتحقيقهم انها ستكون في غاية الراحة والنعمة فكانوا لا ينفكون عن ملازمة جورج في اوقات فراغه ودعوتهم الى سهراتهم وتنزهاتهم ومشاركتهم في الطعام على الاقل اربع مرات في الاسبوع . ولم يكن من رأي جورج ان يكثر مثل هذه الزيارات والمخاطبات ولكنه رأى في جمال حنة ما يقتاده الى اجابة دعوتهم ولم تمض ايام كثيرة حتى شعر جورج بتمكن الحب في فؤاده وأصبح لا يحوله شيء عن الافكار بحنة والاهتمام بالاقتران بها . وكان ذووها يلاحظون ذلك منه فيبتهجون في نفوسهم ويظهرون التجاهل شأن الماهرين في نصب الحبالل لتزويج بناتهم وهم يعتقدون ان بقاء الابنة في البيت حمل عظيم ومصيبة لا تطاق

اما حنة فكانت بديعة في الجمال الى غاية لا تحاكي حتى لو درسها الرسام شهراً

(١) معربة عن الانكليزية بقلم نسيب افندي المشعلاني

الضيآء

(٤٧٧)

والنقاش اشهرًا لا يستطيعان ان يريا اقل خلل في تركيب جسمها وتكوين بنيتها وتقاطع هيئتها . لكن يظهر ان كل ما أُودع من الجمال والكمال في ذلك الهيكل البشري لم يكن الا خارجيًا فلم يصل الى داخله شيء منه فكانت اشة بتثال من النحاس ترى في ظاهره منتهى قدرة الناقش ولكنك اذا فحست باطنه تراه فارغًا خاويًا . فانها كانت بليدة العقل قليلة المدارك لا تدري من الصفات الادبية شيئًا واما الاعمال اليدوية والاشغال التي يُفرض على كل سيدة ان تتقنها فلم تكن تتنازل الى الاهتمام بها ولم تكن والدتها تهتم بذلك ايضًا وكانت اذا نهىها احد الى وجوب تعليم ابنتها وتدريبها على الواجبات البيتية والعلوم تقول دعوها ففرح بصباها فاني لا اخاف عليها لانه اذا رأى جمالها خاطبته لا يعود يسأل عن شيء آخر وفوق كل ذلك فاني لن ادعها تقترن الا بغنيٍ يكفيها مشاق العمل ويكتفي منها بالنظر الى هذا الجمال الرائع وعبادته صباحًا ومساءً

وقد صدق ظن والده حنة في جورج فانه بعد اغتراره بجماها وسقوطه في شرك الحب لم يترك لفظته سبيلًا الى اختبار اخلاقها بل اصبح من رأي والدتها في انها زهرة نادرة لم توجد الا للنظر والشم . وزاد به الوجد والهيام فاغتنم الفرصة يومًا كان فيه يتناول الطعام في بيت ذويها ففاتحهم في امر حبه لها وسألهم قبول خطبته اياها . فما صدق أولئك ان سمعوا هذا الاعتراف ولكنهم اتباعاً للعوائد راوغوه في الجواب وادّعت الام ان ابنتها لا تزال صغيرة السن وانها لا تستطيع مفارقتها ثم رفعت يدها الى عينها لتمسح دمعته لم توجد هنالك قط وانتهى الحديث على ان يتشاوروا في الامر ويعطوه الجواب في الغد . فقضى جورج ليلته على احر من الجمر وما صدق ان جاء المساء الثاني واخذ الجواب بالايجاب بعد ترددٍ طويل فألبس حنة خاتماً ثميناً كان قد استحضره معه وطلب اليهم ان يسرعوا في اعداد جهازها لانه يود ان يتزوج حالما يفرغ من ترتيب منزله في اقل من شهر

وبعد نهاية الاجل المضروب اقترن جورج بحنة وسكنا بيتاً جميلاً وغرق جورج في بحر الملذات وتسمت حنة ذروة مجدها وسرورها فكانت المالكة المطلقة الارادة

(٦٠)

وكان زوجها من اطوع رعاياها واكثرهم تفانياً في القيام باوامرها فلم يكن يعترض على ما تفعله من الانفاق والاسراف والتبذير وزيادة عدد الخدم والحشم بل كان يقدم لها من امواله جميع ما تطلبه فلم يشعر بعد حين الا وقد كادت تفرغ ثروته ولم يبق له من الاموال التي جمعها سوى الشيء اليسير . فقال لها يوماً ينبغي ايتها العزيزة ان نختاط في امر نفقتنا لاننا اذا دمنّا على هذه الحالة فقدت كل ما جمعتُه واصبح راتي غير كاف للقيام بمطالبنا الضرورية . فقالت حنة انني لم اولد ايها العزيز لآكون كاتبة حاسبة فلا تؤمل ان اتعب افكاري بمثل هذه الحسابات بل انا ارى ما يجب اجراؤه لنحافظ على المعيشة التي فنائها ولا ننزل عن الدرجة التي عرفنا الناس بها فدير انت بنفسك امر دخلك لان عليّ تدير باب الانفاق وعليك تقديم المال

وانتبه جورج ولكن بعد فوات الوقت الى ما وقع فيه من مرارة العيش حين لم يبق له من المال سوى ما يتقاضاه من مرتبه الشهري وقد رأى في زوجته سوء التدبير وصلابة الرأي وهي مع ذلك لا تدغن لاوامره ونصائحه بل تعتقد فيه الشح وعدم معرفة قواعد السلوك . فتنقص عيشه وسعى في اصلاح احواله البيتية ولكن على غير جدوى واذا ذاك اضطر الى قرع ابواب اخرى للعمل على يكسب منها ما يضيفه الى مرتبه ليقوم بمطالب زوجته . ورزقها الله ابنةً سميهاها أليس وكانت مثال والدتها في الجمال فاسرع جورج واحضر لها مربيةً اتقاهها بعد بحث طويل وعلق عليها آماله في تربية ابنته بحيث لا تكون كوالدتها . اما حنة فلم تكن تهتم بابتها قط كسائر امور بيتها ولم يكن لها من همّ الا تزيين نفسها واثوابها وتوفير اسباب العظمة والفخر وبقيت هذه الاسرة على ما ذكرنا الى شتاء سنة ١٩٠٢ فلم يطرأ عليها من التغيرات في احوالها الا الشيء القليل فان جورج كان قد انتقل من مركزه الى نظارة الحرية بسبب سفر القائد الى بلاده فزاد دخله وقل عمله اليومي واتسع وقته لآعمال اخرى كانت تحفظ ميزانية نفقته ومطلوبات زوجته . وكانت أليس قد بلغت سن الصبا وفاقت والدتها في الجمال ولكنها لم تكن نظيرها في الصفات المذكورة فكانت تساعد الخدم في الاعمال البيتية وتلاحظ بنفسها ما لا تهتم والدتها ان

الضيآء

(٤٧٩)

تفتكر فيه وكانت تكره البطر والاسراف وكثيراً ما تستأ من والدتها حين تراها كل يوم في حلة جديدة وتقول مسكين ابي... واما والدتها فلم تغير الايام من صفاتها شيئاً بل زادت تها بنفسها وسعياً وراء الزينة والتبرج

ومرض يوماً جورج مرضاً اوجب ملازمته البيت فاستدعى احد كتبة الديوان ليأتيه يومياً بالاعمال الضرورية ليعملها معها وكان الكاتب المذكور يقال له اديب وهو فتى في مقتبل الشباب رزين عاقل ذكي الفؤاد وكان جورج يميل اليه كثيراً ويستحسن سلوكه. فجاء هذا الى بيت جورج ولما دخل استقبلته أليس فاخبرها انه جاء بناءً على طلب والدها فادخلته اليه ولما انتهى العمل عاد الى بيته وقد اشغلت افكاره بتلك الطلعة الملائكية التي قابلته في بيت رئيسه جورج. واستدعت الحال عودة اديب اياماً متعاقبة الى ذلك البيت فكان يرى في كل يوم أليس ويخرج حاملاً من حبها احياناً ولكنه تجلد فلم يعلم احد ما حل به وهو يعتقد انه انما يرجو المستحيل وشفي جورج فعاد الى عمله في الديوان وبطلت زيارات اديب ولكنه كان دائم القلق كثير البالبل والافكار وقد تمثلت له تلك الطلعة الساحرة في عمله وراحته وشغلت جميع دقائق حياته. اما أليس فأعجبها اديب جداً وكانت تشعر من حبه بمثل ما يشعر به من حبها وتتوق الى رؤيته وقد رأت الايام بعد انقطاعه اعواماً وكان يتردد على بيت جورج ايضاً شاب يقال له عزيز من معارف اهل السيدة حنة وكانت هذه تميل اليه كثيراً لكونه يشابهها في الاخلاق فانه كان من مستخدمي الحكومة براتب لا يتجاوز الفاً وخمسمائة غرش كان ينفقها بين اوائل الشهر واواسطه على ملابسه وركوب العربات والجلوس في القهوات حتى اذا بلغ اليوم العشرين من الشهر ابتداءً في اقراض النقود من رفاقه وهو يعد بوفاتها قريباً. وكان اذا جاء عزيز بيت جورج لا بد ان يصحب معه باقة من الازهار يقدمها الى السيدة حنة ثم يجلس فيحادثها وهو في كل دقيقة ينظر الى حذاءه الاصفر الجميل ثم ينتقل الى تنفيض ما ربما علق على ثيابه الجديدة من الغبار بمنديله الحريري المنضوح بالطيب أو يخرج من جيبه من حين الى آخر ساعته الذهبية. فكانت السيدة حنة اذا رآته نسيت كل

شيء واهتمت بمجادثته وهي تقول في قلبها آه يا ليت زوجي عنده نصف ما عند عزيز من الذوق وآداب السلوك ولكن لا بأس فلن ادع هذه الفرصة تفوت أليس . وهكذا عقدت النية على اهداء ابنتها الى هذا الشاب فكانت اذا خلت بها تثني على صفاته . واذا قدم تدعوها لمجالسته . اما هذه فكانت فضلاً عن اشتغال بالها بأديب تكره عزيزاً كراهة قليلة وتأنف من سيرته الدالة على سخافة العقل وقلة الادراك

وكان اديب يعلل النفس من يوم الى آخر ويفكر في طريقة تمكنه من زيارة بيت رئيسه والتمتع بمشاهدة أليس . فلما جاء يوم اول السنة انتهر الفرصة لتأدية واجبات العيد فقصد بيت جورج وهو يقدم رجلاً ويؤخر اخرى حتى بلغ الباب وكان رسول قلبه قد سبقه فما دخل الباب حتى كانت أليس قد أتت لاستقباله فتكلمت لحاظهما في تلك النظرة بما لا تسمعه المجلدات الضخمة . ولما دخل استقبله جورج احسن استقبال اما السيدة حنة فنظرت اليه شزراً وبعد قليل نظرت الى ابنتها فقالت لها قومي يا أليس واستعدي فقد أوف موعدي عزيز ليأخذنا في العربة الى الجزيرة حسب الاتفاق . فقامت الابنة بعد ان ألقت على اديب نظرة لم يخف عليه معناها لكن رابه ما رأى لعزيز من الدالة على بيت جورج فقال في نفسه لعلهم يريدون مصاهرته واذا كانت هذه هي الحقيقة فقد اتقى آخر ما بقي لي من الامل . ثم انتظر ريثا تناول القهوة فاستأذن فألح عليه جورج ان يزورهم في كل اسبوع ولم يسمح له بالخروج حتى وعده ان يفعل . ولما خرج من البيت توجه توّاً الى قهوة على طريق الجزيرة فرأى بعد قليل عربة تقل أليس والدتها وبارأتها عزيز في ثياب جديدة وزينة فاخرة ورأته أليس فصنغ الاحمرار وجهها اما اديب فكان غشاوة غطت عينيه وتأكد ان لا نصيب له في هذه الابنة

وكان اديب يزور بيت جورج حسب وعده في يوم استقبلهم فيزيد حب جورج له لفرط ادبه وطلاوة حديثه وكمال آدابه . اما حنة فكانت تنحاز الى جانب عزيز اذا وجد وتشاغل به بحديثها طول المساء أو تذهب الى غرفتها فتنام اذا لم يجئ ودامت الحال على هذا المنوال الى مساء العيد الكبير فألحت السيدة حنة في طلب

الضياء

(٤٨١)

الذهاب لحضور صلاة نصف الليل في كنيسة الجزاوي . فامتنع جورج من الذهاب معها لوفرة اشغاله فقالت حنة انهما ستذهبان بصحبة عزيز فلا خوف عليهما وكانت ارادتها دائماً غالبية كما علمنا من قبل فلم تجد ممانعاً لرغبتها . ولم يرق لأليس مرافقة والدتها وعزيز لانها كانت تبذل جهودها في الابتعاد عنه ولكنها فكرت انه لا بد من وجود اديب هناك ايضاً فتراه ولو عن بعد . وذهب الثلاثة الى الكنيسة فكانت السيدة حنة تستلفت انظار الجميع بهيئتها الفخيمة ولا سيما ملابسها التي انفقت عليها مبلغاً كبيراً من المال وخصصتها لتلك الليلة . اما أليس فأصابها في وسط الحلقة دوار عظيم عقبه ألم في رأسها فلم تستطع الوقوف وتوسلت الى والدتها ان يرجعوا الى البيت فقالت امها تشددي يا بنية فاني ما جئت الى هنا لترك الكنيسة قبل انتهاء الصلاة ولا يقدر عزيز ان يرجعك ويتركني هنا وحدي . فصمتت أليس مكرهة ولكنه زاد بها الألم فلم تقوَ رجلاها على حملها وكادت تسقط الى الارض لولم تبادر والدتها الى احتضانها وهي تشتم الاتفاق وتؤنب ابنتها على المجيء . ثم حانت منها التفاتة واذا اديب بالقرب منها فأشارت اليه فأثى فكافته ان يوصل أليس الى البيت في العربة ويعود حالاً . فاستغرب اديب الامر جداً ولم يصدق اذنيه لاول وهلة وكانت أليس قد عجبت أكثر منه فقالت لوالدتها وهل من العدل يا امه ان يحرم اديب حضور الصلاة . فقال اديب لا بأس يا سيدتي فسأعود في الحال . ولا يفوتني الا القليل . ثم اخذ بيد أليس وما صدق ان خرجا من فسحة الكنيسة وبلغا العربة فركباها واشارا الى السائق بالمسير وهاج في صدر اديب بركان من العوامل لكنه لم يجد الى النطق سبيلاً وعلم كما علمت أليس ان الفرص تمر مر السحاب وان التقادير أوجدت لها هذه الفرصة فلا ينبغي تركها وتغلب اخيراً على حيائه فقال ألا تزالين تشعرين بألم ايتهما السيدة . قالت لا فاني مذلمست يدك شعرت بتمام القوة والعافية . قال أفتريدين ان ارجعك الى الكنيسة اذاً . قالت كلا فاذا عدت الى الوقوف بجانب هذا الغليظ عزيز فلا بد ان يعاودني الداء . فبددت هذه الكلمة جميع شكوك اديب في وجود علاقة بين حبيبته ومناظره فتنهّد طويلاً وقال الحمد لله . قالت ولم . قال لانني ظننتك تحيينه

وانه سيكون خطيبك كما سمعت . قالت ان والدتي تسعى جهدها في ذلك ولكن هيات ان ذلك لا يكون وفي عرق ينبض . فلم يقوَ اديب على ضبط نفسه زيادةً على ذلك فأخذ يد أليس بكلتا يديه وقال وهل تحبين سواه اذًا . فنظرت اليه نظرة طويلة ثم تهمت ومسحت دمعته ترفقت من مقلتها ولم تبد جواباً . فقال اديب اواه ما اتعسني وما اعقم آمالي وهي ان ما كنت اظنه غير صحيح فمن أين لي ان اصل الى ما ارجوه . قالت وما هو الذي كنت تظنه وما الذي ترجوه . قال كنت اظنك خالية الصدر من حي فكان في عزمي ان استعطف فؤادك على فؤادي الجريح واما وقد علمت انك رثيت لعذابي وتنازلت لحبي فمن يضمن لي قبول والديك وسماحها لي بك . فقالت وقد القت رأسها الى صدره انت في غنى عن استعطافي يا اديب فقد احببتك منذ زمان طويل واما قبول والدي فصعب ولكنه غير مستحيل . فضوت اديب خصرها بذراعيه وقال أحقيقة ما انا سامع وهل تحميني حباً صادقاً يا حياتي . قالت قد اعطيتك يدي فاما ان اكون عروساً لك او للاحد وكانت العربة قد وقفت امام بيت جورج فدخلت أليس بعد ان ودعت اديباً ورسم على يدها قبلة كانت اثمن واصدق عربون لخطبته ثم عاد الى الكنيسة . وكانت السيدة حنة وعزيز لا يزالان في موقفهما فاخبرها بقدم العربة فلم يهتما بسؤاله عن أليس فعاد الى بيته وصرف ليلة من اسعد ليلاه يراجع في ذاكرته ما دار بينه وبين حبيبته من الكلام .

وبعد ذلك بايام دار حديث بين حنة وابنتها أليس في امر الزواج فقالت حنة لا بد انك لاحظت يا أليس ميل عزيز اليك وقد سألتني يدك فوعدهت بذلك ولم يبق سوى تعيين يوم الفرح . فقالت أليس ومن اعلمك يا اماء اني راغبة في الزواج ولو كان ذلك كمن عزيز آخر من افكر فيه لانني لا اطيقه . فقالت والدتها وقد استشاطت غيظاً ومتى كان للبنات اللواتي من سنك حق في انتقاء ازواجهن او رفض ما يدره لهن والدوهن . أولاً تدرين يا هذه ان عزيزاً اجهل شباب العاصمة واحسنهم ذوقاً واتقنهم لباساً فهل رأيت بين كل معارفنا من يشبهه في شيء من

الضياء

(٤٨٣)

الت كلا وانما لم اره يشبه احدا في الرصانة ووفور العقل بل هو فظ قليل
 لن تحتله نفسي . فقالت امها اخوسي ايتها الجاهلة وانني اخطأت بمفاتحتك
 الحديث واخذ رأيك فيه مع انني عالمة ان لا ارادة لك سوى ارادتي .
 اخبرك ان زفافك الى عزيز قد تقرر ولا بد منه قبل حلول العيد القادم .
 هذا ذهبت الى غرفتها تاركة أليس بين التهنيد والدمع

ولما جاء جورج في المساء رأى ابنته حزينة النفس وكان يحبها حباً شديداً
 طارت نفسه شعاعاً وجعل يسألها عما بها ثم اخذها الى غرفته وكانت والدتها في
 غرفة الاستقبال مع عزيز . واجتهد الاب في ملاطفة ابنته فآخبرته بما دار بينها
 وبين والدتها من الحديث ثم اعترفت له بحبها لاديب . وكان ذلك الوالد الحنون
 يصغي بمتنهي اللطف فأثر فيه كلام ابنته ولا سيما وهو عالم بحالة زوجته فتحركت فيه
 العواطف الوالدية وقال لابنته لا تحزني يا أليس فاني لا ارضى بهذا المخش الذي
 تروم والدتك ان تنقص عيشك به كما نغصت حياتي هي . اما اديب فاني احبه كوالدي
 وطالما تمنيت ان يكون صهراً لي لانه مثل الرجل العاقل الحازم وسيكون له مستقبل
 حسن . فطببي نفسك ولا تفاتحي والدتك في شيء من حديثنا هذا الى ان يأتي وقته
 واخبرت حنة زوجها بما دبته لابنتها فقال لها ان عزيزاً لا يناسب أليس ولا
 اريده صهراً لي فهو مخش لا يملك شروى تقير وما ترين فيه من الاسراف والتوسع
 في النفقات ليس الا من اموال اصحابه ومعارفه فاياك ان تعديه بذلك . فقالت وقد
 رفسست الارض برجلها ولكنني وعدته ولا ارى افضل منه لابنتنا فلا بد من اتمام
 وعدي أولاً تعلم ان اللام الحق في تدبير شؤون بناتها وليس للاب دخل في ذلك .
 وافضت هذه الحادثة الى نفور شديد بين جورج وزوجته واقسمت انها ان لم يطع زوجها
 مشيئتها ستتركه وتحسب نفسها ارملة . فكانت يحتمل جورج ذلك بصبر ويسعى
 جهده في اصلاح زوجته ولكنها لم تزد الا تصلباً وعناداً واصبحت حياتها اليئسة
 حياة نكد ومرارة . وجعل جورج همه مساعدة اديب في التقدم والترقي حتى اناله
 مركزاً حسناً ثم خطبه أليس وعين يوم زفافها بدون ان تعلم زوجته

اما عزيز فلم يعلم بشيء من ذلك وكان لا يتكلم في امر أليس لعلها
وقد لاكتفى بميل والدتها اليه . وقبل اليوم الذي عينه جورج لزفاف أليس اخبر
فأبرقت وارعدت وتوعدته بعقوبات شتى . ولما رأت تصميمه على عزمه خرجت
غرفتها وفي الصباح دخل الخادم على جورج ورفع اليه رسالة قرأها فاذا فيها
« ايها الرجل العنيد

بما انك صممت على ترك طاعتي والتصرف بدون مشورتي فلا انت زوجي
انا زوجتك فساخرج من هذا البيت الذي فقدت سلطتي فيه . ستندم انت وابتك
على ما فعلت ولكنني سأسر متى رأيتهما تعضان انا ملكما اسفاً . وينبغي ان تعلم اخيراً
انه لا يوجد قوة تعيدني اليك اذا صممت على تزويج ابنتك من اديب »

فاستاء جورج جداً واخذ يسأل عن زوجته فاخبره الخدم انها خرجت قبل
بزوغ الصباح واوصتهم ان يسلموا اليه رسالتها حين يستيقظ

ولم يؤخر جورج امر اقتران ابنته واديب فتم ذلك بغاية البساطة والسكون .
اما حنة فان بغضها لزوجها ورغبتها في التكفير لمزيج عن عدم القيام بوعدا جعلها
تغوي ذلك الشاب الصغير العقل فسلمته نفسها واكثرى لها بيتاً اقاما فيه معاً في
بعض الانحاء المهجورة من المدينة ولكنها ما عثمت ان تتحقق ضيق ذات يده
وتراكم الديون عليه فعظم عليها الامر وضائق الدنيا في وجهها اذ لم يمكنها الرجوع الى
بيت زوجها ولا استطاعت البقاء على تلك الحالة واثار فيها اليأس والغيظ فمضت
مرضاً شديداً كان فيه انقضاء حياتها

وبلغ خبرها جورج فتأثر تأثراً شديداً ولكنه هان عليه ذلك بعد تركها اياه
على الصفة المذكورة فلبث مع ابنته وصهره اديب لا يشوب حياتهم شيء من
الاكدار سوى تلك الذكرى المحزنة عاقبة الطيش والجهل

